http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1763) السنة السابعة - الثلاثاء (6) نيسان 2010

الاعظمية.. معشوقة الملوك

ذاكـــرة بـغـداديـة تـزخـر بـالحـضـارة وألـــق الـتـاريـخ

تحقيق / وائل نعمة
تصوير / سعد الله الخالدي

الاعظمية حاضرة بغدادية عريقة، ارتبط اسمها بالامام أبو حنيفة النعمان وبتاريخ الخلافة العباسية. تقع في شمال بغداد وهي شبه جزيرة تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث، كثيرا ما تطاولت عليها العصابات المجرمة وفلول القاعدة محاولين المساس بعراقيتها ، ولكنها حافظت على وجودها وتاريخها ، حيث أنشئت الاعظمية بعد اكتمال مدينة المنصور المدورة بالكرخ من بغداد، حينما قام ولي العهد المهدي عام (١٦٩هـ) بعبور نهر دجلة وبنى ما عرف بمعسكر المهدي، حيث المقبرة الملكية حاليا. وقبل هذاوضع فيها رفات الإمام أبي حنيفة النعمان عام ١٥٠هـ ، ذلك قبل عمرانها العباسي.

ساحة عنتر بن شداد

وتردد العلماء إليها وانتقل مساكن العلماء والطلاب إليها ما زاد في حركتها العلمية والثقافية ، ومن ثم عند مجيء السلطان العثماني مراد الرابع عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م ، إعاد تعميرها، واسكن أعداداً كبيرة فيها من قبيلة العبيد العربية القحطانية، الحميرية لحمايتها من الفرس. وقد طور المدينة العثمانيون وسكنوا فيها كونهم يتبعون المذهب الحنفي.

ومع التطور الاقتصادي والأجتماعي في بغداد في فترة الثلاثينيات كانت الأعظمية أحدى المناطق التي أنتقل اليها للسكن وبناء البيوت أهالي المحلات البغدادية القديمة والقادمين من المدن الأخرى وخصوصاً من موظفي الدولة وضباط الجيش والطبقة البورجوازية الصغيرة. كانت الأعظمية القديمة المبنية على الطراز البغدادي القديم أي (الحوش) في الداخل البيت فإن السكان الجدد بنوا مناطق هيبت خاتون وشارع الضباط ونجيب باشا ومناطق السفينة على طريقة (الفيلات) . ولقد غير ذلك طبيعة المنطقة وجعلها تمثل خلال تلك الفترة حداثة المجتمع العراقي .

أحيـاء الأعـظـمـيـة

يقول الحاج ابو عمر (٦٦) سنة ومن سكنة الاعظمية القدماء أن الأحياء الأربعة التي تعتبر المنطقة القديمة في الأعظمية هي السفينة والحارة والنصة والشيوخ.وما حولها اليوم يعتبر امتدادا لها كرأس الحواش وشارع عمر بن عبد العزيز وشارع الضباط وأحياء الشماسية والوزيرية والعيواضية و راغبة خاتون و شارع المغرب.

مساحة الأعظمية تبلغ حوالي ٣٣ كيلومترا مربعا.ومن اهم مناطقها هي الوزيرية تقع جنوب الاعظمية وسميت بذلك الاسم لان سكنها مجموعة من الوزراء وراغبة خاتون ويعود تأسيسها إلى العهد العثماني وسميت نسبة إلى السيدة راغبة التي كانت ذات نفوذ كبير وتملك الاراضي في المنطقة ، وشارع المغرب يقع على جانبيه محال واسواق كبيرة ويشتهر بمكاتب وعيادات الاطباء والمستشفيات والمختبرات الطبية. كما يوجد في الاعظمية الكثير من الجوامع والمساجد اهمها جامع العساف وجامع عادلة خاتون، وأول مدرسة رسمية افتتحت في الاعظمية بعد سقوط الحكم العثماني عام ١٩١٧ كانت « المدرسة الاعظمية الابتدائية » وقد افتتحت في محلة النصة

وافتتحت أول مدرسة للبنات بداية الثلاثينيات من القرن الماضي هي مدرسة « الخنساء الابتدائية للبنات » وتقع في بيت سيد نعمان الحاج محمد الاعظمي في محلة النصة، أما المدارس المتوسطة فان أول مدرسة متوسطة افتتحت عام ١٩٣٩ في بناية « ثانوية الاعظمية للبنات حاليا » ثم انتقلت إلى بنايتها الحالية قرب المقبرة الملكية.

المقبـرة الملكية

أهم معالم مدينة الاعظمية لما تتميز به من بناء راق وقبة جميلة وحدائق ، تضم قبر الملك فيصل الثاني والى جانبه يرقد الملك غازي المولود في ٢١ آذار ١٩١٢ والمتوفى في ٤ نيسان ١٩٣٩

والملك علي بن الحسين المولود عام ١٨٨٠ والمتوفى عام ١٩٣٥ و جثمان الملكة عالية المولودة سنة ١٩١١ والمتوفية سنة١٩٥٠ وغيرهم من الاسرة الملكية الحاكمة واعضاء السلطة والشخصيات السياسية في تلك المرحلة من تاريخ العراق .

يقول المهندس بلال عمار أن المقبرة الملكية بنيت من صخر الجلمود المسمى (حجر الشاطئ) وهي مغلفة بالطابوق اما الابواب والشبابيك فقد صنعت من خشب الصاج.

انشئت المقبرة الملكية على ارض تكونت بما كانت ترسبه مياه دجلة في العصور الماضية، ذلك ان هذا النهر كان يجرف تلك الترسبات الطينية من شاطئه الغربي (العطيفية سابقا) ويلقيها في شاطئه الشرقي المقابل حتى ارتفعت الارض هناك واصبحت جزءا من الجانب الشرقي من بغداد، وبالنتيجة اتخذ مجرى دجلة لنفسه شكله الحالي الذي يشبه ان يكون قوسا كبيرة تقع المقبرة وسطها وقريبا من موقع المقبرة اليوم كانت تقع محلة الاعظمية حيث كانت هناك مقابر الاسرة العباسية، التي تعرف بترب الرصافة وفيها دفن عدد كبير من الخلفاء العباسيين وبعض افراد الاسرة العباسية.

الاستاذ عبدالوهاب حسن استاذ التاريخ الاسلامي يقول : اختار الملك فيصل الاول هذه البقعة مقرا لاول جامعة عراقية في تاريخ العراق الحديث هي جامعة آل البيت وقد شيدت اول مباني هذه الجامعة على يسار الشارع المؤدي الى المقبرة الملكية، ولم تكن المقبرة نفسها قد بنيت بعد، وتشغل هذه المباني اليوم (الجامعة الاسلامية) وتقديرا من الملك للعلم والعلماء فقد اختار ان يكون مدفنه قرب هذه الجامعة، وكان قبره النواة التي انشئت عليها المقبرة الملكية.

جامع ابو حنيفة

توفي الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ببغداد وقت ابي جعفر المنصور عام ١٥٠هـ. ودفن في جهة شمال بغداد في مكان دعي بعد حين بـ (مقبرة الخيزران) وذلك نسبة الى الخيزران زوجة الخليفة المهدي ووالدة الهادي وهارون الرشيد التي توفيت ودفنت هناك وبعد ذلك بني جامع قرب قبره عام ٣٧٥هـ.وبنيت عنده مدرسة كبيرة ومشهد وقبة، وسميت الدور الواقعة في جوار المشهد باسم محلة الامام ابي حنيفة وكان التدريس في المدرسة قاصرا على العلوم الدينية فقط.

ويضيف استاذ التاريخ عبد الوهاب حسن :اثناء وجود الصفويين في بغداد تم ولمرات عدة هدم مشهد الامام ابي حنيفة وتحطيم المدرسة. وقد لقي المشهد بعض العناية من قبل الملك محمد بن منصور الخوارزمي بعد مجيء العثمانيين الى بغداد عام ١٥٣٤م.وشهد ذلك العام اصلاحات من قبل السلطان سليمان القانوني فعند عودة السلطان سليمان القانوني من زيارته لكربلاء والنجف الاشرف زار قبر الامام ابي حنيفة الذي كان مهدما»فأمر بإعادة تشييد القبة والجامع عليه وأمر كذلك بتعمير دار ضيافة وحمام وخان وأربعين الى خمسين دكانا حوله ثم أمر بتعمير قلعة لحراسة الجامع والمدرسة والمنطقة ووضع جنودا بلغ عددهم نحو ١٥٠ ومعهم معدات حربية ومدافع لحماية المكان، وقد بقيت مدرسة الامام الاعظم المدرسة الوحيدة في الاعظمية الى جانب بعض مدارس الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة والقرآن حتى سنة ١٩١٨م حيث اعيد اعمار الجامع وتنظيم المدرسة التي سميت كلية الاعظمية ثم دار العلوم الدينية والعربية ثم كلية الشريعة ثم كلية الامام الاعظم.

أبرز معالمها

من أشهر الساحات في الاعظمية هي ساحة عنتر وتقع في منتصف شارع الأمام الأعظم وتضم تمثالا لعنترة بن شداد راكبا» خيله رافعا» سيفه وقد بنيت بداية الثلاثينيات من القرن الماضي ووسعت وطورت عدة مرات، كما كان في السابق معلم حضاري قد طمست معالمه وهو البلاط الملكي الذي تم بناؤه سنة ١٩٢٣م على نهر دجلة في شارع الامام الاعظم،وهو نفس موقع بستان الزاهر (من العهد العباسي) والذي اتخذ مقرا للحكم ايام البويهيين.والبلاط الملكي صار في الثمانينيات ناديا للضباط.اما اهم الاماكن الرياضية في الاعظمية فهو نادي الاعظمية الرياضي الذي تم بناؤه سنة ١٩٤٠م ،ويضم قاعات وحدائق وساحات للرياضة . بالاضافة الى ملعب الكشافة الذي أنشئ عام ١٩٢٩م،وهو الملعب الوحيد الذي زرعت أرضيته (بالثيل) وقتذاك وكان يسمى (نادي الكشافة والألعاب الرياضية).

اما عن اكثر الاماكن شهرة وذكراها موجودة في نفوس معظم البغداديين هو كورنيش الاعظمية الذي يقع على امتداد نهر دجلة وكان في السابق يحوي العديد من الحدائق والمحال والمطاعم .وبسبب ان النظام السابق قد انشأ قصرا امام الكورنيش فقد اهمل المكان واصبح من المحظورات ، وترك لفترة طويلة بعد ٢٠٠٣ ولكن بعد التغيير في الوضع الامني عاد المكان الى سابق عهده حيث الكازينوهات والحدائق الكبيرة التي تزدحم بالعوائل وخصوصاً في أيام العطل.

بين الاعظمية والكاظمية

مدينتا الاعظمية والكاظمية يربط بينهما جسر الأئمة وقد عاشت المدينتان وأهلها على مدى عقود من الزمن أخوة متحابين ويرى من مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان مرقدا الإمامين موسى بن جعفر والجواد ويمتاز كورنيش الأعظمية وكورنيش الكاظمية بأنهما من أحلى مناطق ضفاف نهر دجلة في بغداد.وبين أهل الأعظمية وأهل الكاظمية بالاضافة لروابط المواطنة والجيرة والدين أواصر رحم وقربى،،حيث توجد الكثير من العوائل والبيوت الواحدة قد سكنت المدينتين ومن هذه العوائل عشيرة العبيدي والقيسي والجلبي والعامري، وغيرها. وللمدينتين دور عظيم في تجسيد روح الاخوة والوحدة الوطنية.

«الحاج هاشم الياسري احد سكنة الكاظمية قد التقيناه عند احد اصدقائه في منطقة راغبة خاتون حيث قال : كنا في السابق نلتقي في فصل الصيف ،شباب الكاظمية والاعظمية في جزرة دجلة التي كانت تظهر لنا بمجرد ان ننهي امتحاناتنا الموسمية فنكون فرقاً بكرة قدم و كرة طائرة ولم نكن يومها نفهم كلمة طائفة ،فلم يكن ثمة من يتداولهاوالاعظمية والكاظمية تفصل بينهما دجلة وتقربهما الى بعض ارواح الائمة والاولياء المدفونين في الجانبين ويشدهما الى بعض جسر الائمة الذي يطلق عليه البعض جسر المحبة.

ويتذكر الحاج هاشم يوم كادت الكاظمية تغرق اوائل خمسينيات في القرن العشرين عندما فاض نهر دجلة ،وكيف تنادى اهل الاعظمية لنجدة اخوانهم في الكاظمية وبنوا سدتهم معا كتفا الى كتف ،ويوم استشهدت أجساد الزوار في كارثة جسر الائمة في ٢٠٠٥م ، وكيف تنادى أهل الاعظمية فحملوا الجرحى الى مستشفى النعمان بسياراتهم وحملوا الماء والطعام للوافدين عبر الاعظمية الى جسر المحبة وعلقوا لافتات تدين تلك الاعمال على جدران جامع الامام الاعظم.

كورنيش الاعظمية

خـدمـات متواضعة

فيما اشتكى اهالي الاعظمية من سوء الواقع الخدمي المتردي في مدينة الاعظمية وما زال يزداد سوءا خصوصا بعد الانتخابات . عبود القيسي احد ساكني منطقة حي الشماسية احد متأخلها قال : معظم مناطق ا لا عظمية تشكو من طفح مياه الصرف الصحي وتزايد اكوام النفايات داخل الشوارع الفرعية في المنطقة .

وفي المجلس المحلي للاعظمية يقول خليل ابراهيم احد اعضاء المجلس ان دائرة الأعظمية تشمل سبعة أحياء سكنية وتحتوي على٢٨ محلة سكنية تتوزع هذه الأحياء على عموم الرقعة الجغرافية في حدود ٣٣ كيلو متراً مربعاً من تقاطع شارع محمد القاسم شمالا وجنوبا حدود بلدية الرصافة، وشارع صفي الدين الحلي بالإضافة إلى نهر دجلة يحدها من جانب الغرب.

وذكر بأنهم يقومون بتوزيع أكياس نفايات بمعدل ثلاثين كيساً للعائلة الواحدة في حدود دائرة بلدية الاعظمية، وكانت أعمالنا في السابق تقتصر على أعمال التنظيف، والصيانة فقط وبعد تحسن الوضع العام الأمني، والاستقرار باشرنا بأعمال عمرانية، وأعمال تطويرية والتي بدأت بتطوير في ساحة عنتر وجهزت بالنافورات بالإضافة إلى تطوير الشارع الأعظم، وماحول جامع أبو حنيفة النعمان و جسر الائمة ، لكننا مازلنا نعاني من مشاكل في التخصيصات المالية وعدد المنظفين ولكننا نطمح إلى ان نتعدى هذه المرحلة وننجز الاكثر لاهالي المنطقة.

جسور المشاة بعد ان اهملتها الحكومة

بعضها مكب للنفايات واخرى استعمرها الباعة المتجولون

تحقيق : ايناس طارق

لم يدرك حسين،ان القدر سياخذ ابنه مهند البالغ من العمر خمس سنوات بينما كانا يعبران الطريق الرئيسي والسريع الفاصل بين منطقة حي العدل والغزالية ، حيث صدمهما سائق سيارة مسرعة ، ليلقى الابن مصرعه ،والاب يسقط جسده المحطم بلا حراك وسط بركة دماء ابنه التي نفرت من راسه،وكل ذلك ليس بسبب سرعة السائق لان الطريق هو كما يسمى (طريق سريع) ولا ذنب حسين وابنه ، انما اهمال السبب جسور المشاة على الرغم من بقائها شامخة في مكانها .لكنها اصبحت مهجورة وتحيط بها اسوار من الحواجز الكونكريتية وفواصل حديدية شائكة تغلق مداخل سلالم الصعود والنزول.

جسور المشاة

جسور المشاة في بغداد مع الاسف اصبحت على الرغم من علوها عن الشوارع العامة واجهات لتعليق الاعلانات والدعائيات،إضافة الى اعتبارها مكانا امنيا لبعض القوات الامنيةبالجلوس فوقها للسيطرة على الشوارع بصورة اكبر وضوحا ، وتناستها مع الاسف اكثر الجهات الحكومية ،وأهملتها وتركتها على حالها دون ان تمد لها يد الانتشال مما أصابت من ضرر فغالبية جسور المشاة التي تملأ العاصمة وخصوصا الشوارع الرئيسية هي مهملة ومكسرة السلالم، بل أصبحت مكبا للنفايات بعد ان كانت معلم حضاريا يجب الاهتمام به والمحافظة عليه لكن ما لوحظ في السنوات الاخيرة انها بدأت تتلاشى يوما بعد يوم ولم يعد احد يرتادها او يسير عليها خوفا من السقوط منها او سقوطها فجاة.

آراء المواطنين

يقول مجد ناصر يبلغ من العمر ٢٣ عاما و صاحب بسطية ،في سوق الشورجة والمزدحم بالمواطنين المتبضعين من مختلف انحاء العراق ان جسر المشاة الذي يربط بين طرفي سوق الشورجة تحول في الفترة القليلة الماضية الى سوق صغير جراء انتشار الباعة المتجولين عليه من اول سلم صعود وحتى اخر سلم نزول الامر الذي بدأ يسبب الازعاج للكثير من المواطنين الراغبين بالعبور من فوقه ،وبدوا يلجأون الى عبور الشارع المزدحم بالسيارات واصحاب العربات المحملة بالبضائع . على الصعود ،بينما يقول رجل المرور سلام ان جسور المشاة مع الاسف اختفت في العاصمة بغداد وبدأت عملية تهدم واختفاء من الشوارع ولم يبق منها غير السلالم ،فالبعض منها كان ضحية السيارات الكبيرة التي قصمتها الى اجزاء وتركتها مائلة في اماكنها حتى عفا عليها الدهر ورفعت من مكانها دون عودة وفائدة للمواطن الذي بدأ يتعرض الى الخوف والفزع في كل مرة يحاول عبور الشارع .واضاف سلام يجب النهوض واعادة بناء واعمار هذه الجسور لما توفره من انسيابية في حركة المشاة فضلا عن مظهرها الحضاري.

المواطن فيصل رسن علق قائلا: غالبية جسور المشاة اصبحت من ذاكرة الماضي وهدمت ودفنت بالمجسرات التي امتدت على شوارع كثيرة من بغداد وكانت سببا في طمس معالم كثيرة كانت شامخة مثل جسور المشاة التي كانت ممتدة على اغلب جوانح شوارع العاصمة والمكتظة بالمواطنين وتشهد ازدحامات كثيرة للسيارات .لكن الان المجسرات على الرغم من امكانية تقليلها الازدحام في الشوارع لكنها ايضا كانت سببا لزيادة الزحام وتهديم الكثير من معالم كانت منتشرة في الشوارع الرئيسية للعاصمة بغداد.

جسر باب المعظم

اما ابو رافد متقاعد يقول لم يعد المواطنون يرتادون جسور المشاة او يسيرون عليه، فلم يعد هناك قانون يحاسب المواطن في حالة عدم عبوره من غير المناطق المخصصة للعبور ، وحقيقة العبور من الشارع مباشرة افضل من الصعود والعبور من على جسر المشاة لانه اسرع واختصار للوقت فضلا عن عدم وجود الثقة بالصعود والعبور من فوق هذه الجسورة لانها توحي بانها الية بالسقوط في أي وقت كان، وبعضها بقي اعمدة فقط ومهدمة ولايصلح السير عليها.

اما جسر باب المعظم والذي يعتبر من اهم جسور المشاة في بغداد والممتد بأربع اذرع على اجزاء ساحة باب المعظم المزدحمة بمئات السيارات والاف المواطنين ان كانوا عابرين الى مدارسهم وكلياتهم ودوائرهم ومحالهم وبسطيتهم المنتشرة على طول المنطقة وخصوصا كراج باب المعظم،الذي لايهدأ ولا يخف فيه ضجيج السيارات ، لكن الان الجسر اصابه الاهمال الطويل والبعض منه اصبح لايبعث الطمانينة والراحة داخل المواطن الذي يجد من عبور الشارع اسهل واسرع من ان يصعد الجسر لان الشوارع مزدحمة والسيارات تتوقف لفترة طويلة وهنا المشاة من المواطنين يجدون ذلك اسهل وابسط .يقول سرمد صاحب بسطية لبيع الفواكة والخضار ويجلس تحت احدى اذرع الجسر ، ان الاهمال الطويل لهذا الجسر وعزوف المواطنين عن استخدامه نتيجة وجود الثقوب الواسعة في ممراته والخوف من السقوط منها والكثير من الحالات الأخرى التي يمكن معرفتها والاطلاع عليها من قبل أي جهة كانت.

اهتمام بأسرع وقت

جسور مشاة منتشرة في انحاء بغداد تركت واهملت والبعض منها قلعت من اماكنها نتيجة اصطدام السيارات العالية بسياجها ، والبعض الاخر اصبح محطات جلوس للقوات الامنية واسيجتها محطات لتعليق اللافتات الإعلانية .فضلا عن اهتمام المسؤولين بالطرق السريعة الداخلية والتي اصبحت فوضى لعبور المشاة العشوائي المميت وسير السيارات والمركبات الكبيرة كيفما يحلو لها وبالاتجاه الذي يروق للسائق ، فالحوادث المرورية زادت في السنوات الاخيرة نتيجة عدم الالتزام بالقوانين المرورية وواحدة منها هي عبور المشاة من الجسور المخصصة لهم ،وقد شهدت السنوات الاخيرة سقوط عدد من جسور المشاة في محافظة ذي قار اضافة الى منطقة ابو غريب الامر الذي زادمن خوف المواطنين من الصعود اوحتى المرور من تحتها فالى متى تبقى جسور المشاة تعاني الاهمال .في وقت نشعر بحاجتنا لها بعد ان غزت شوارعنا السيارات بعد انتشار ظاهرة الاستيراد العشوائي لها. وفي تصريح لامانة بغداد وعلى لسان المتحدث الاعلامي حكيم عبد الزهرة معلقا عن هذا الموضوع قائلا ، ان امانة بغداد بصدد اعداد خطة لانشاء عدد من جسور المشاة في العاصمة بغداد للحفاظ على أرواح المواطنين فضلا عن عبورهم .من الاماكن المخصصة بعد تزايد الحوادث المرورية في الاونة الاخيرة ،وكذلك تعرض هذه الجسور الى الاعمال الارهابية وجسور المشاة تعتبر معلما خدميا في بغداد ، فامانة بغداد تعمل على إعادة تأهيلها وصيانتها.